

إهداء

إلى من تولانى بالرعاية والحوطة منذ أن وطأت قدمى جامعة عين شمس العريقة .
إلى من أوقفنى على حقيقة المعرفة التاريخية ، والعلوم البينية فى تدوين التاريخ .
إلى من علمنى كيف أتعامل مع المصادر على اختلافها وتناكرها .
إلى أحد أبرز المنظرين والمفكرين والمؤرخين فى مصر والعالم العربى .
إلى العالم الجليل صاحب المنهج المحمودى فى تدوين التاريخ .
إلى صاحب سوسيولوجيا الفكر الإسلامى والمصنفات التاريخية الماتعة .
إلى عملاق الفكر العربى .
إلى أبى الروحى البروفيسور محمود إسماعيل عبدالرازق .
تقبل منى هذا العمل المتواضع . فإنما هو فكرة مقتبسة من طروحاتكم .

المقدمة

يعتبر ابن حزم الظاهري أحد أبرز رجال المدرسة التاريخية التي بزت وظهرت في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بمزاج وفكر أندلسي محض في عصر ملوك الطوائف ، وكان من أقطابها ابن حيان مؤرخ الأندلس العظيم ، وصاحب المقتبس والمتين .

لقد استغل ابن حزم التراكم المعرفي الخاص بالفكر التاريخي الذي اختمر بالأندلس منذ القرن الثالث الهجري على يد عبد الملك بن حبيب (179هـ - 238هـ / 796 - 854) حتى عصره ، ونجح في تأسيس مدرسة حزمية تاريخية تعددت أفكارها وطروحاتها ، واعتمدت على توسيع فروع التاريخ بضم علم النسب إليها ، فضلاً عن تبنيها فلسفة التاريخ التي نسبت لابن خلدون مؤخرًا ، وهي في الأساس من بنيات أفكار ابن حزم مؤسس المدرسة الحزمية التاريخية .

ويهمنا في هذا المقام رأس المدرسة الحزمية التاريخي ، والذي ترك لنا تراثاً متنوعاً في جل أجناس الكتابة التاريخية ، فكان بمشاركاته الفريدة رائداً في مجال الدراسات التاريخية كما كان في الفقه والأصول والحديث والتفسير والمعتقد والفلسفة والمنطق وعلم الكلام والعلوم اللسانية المتعددة وغيرها من علوم المعقول والمنقول .

لقد نجحت المدرسة الحزمية التاريخية في أن تبرز وتظهر خلال عصر ملوك الطوائف منطلقاً من القواعد والأصول التي قعدها وأصلها ابن حزم ، فأريناها واضحة في مصنفات تلميذيين من تلاميذ مؤسس المدرسة وهما صاعد بن أحمد والحميدى ، ثم تأصلت تماماً في عهد الدولة الموحدية التي انحازت لابن حزم وفكره ومذهبه بصفة عامة ، ومن ثم وجدنا ثلة من المؤرخين الذين تأثروا بابن حزم ونهجوا نهجه في العديد من القضايا التاريخية ، ومن هؤلاء ابن دحية الكلبي ،

وابن الرومية ، وابن القطان ، وابن عربى الصوفى وغيرهم (1) ، وهو ما دفعنا لتخصيص دراسة مفردة عن المدرسة الحزمية التاريخية بالأندلس فى عصر الموحيدين بدأنا فيها بالفعل بعد صراع فكرى مرير، ونسأل الله تعالى أن يعين على إتمامها هى وغيرها من الدراسات المتعلقة التى لم تر النور بعد.

لقد شغلت بابن حزم وبمذهبه منذ أن كنت فى بداية الطلب ، وتحديدًا فى تسعينيات القرن المنصرم ، ومن وقتها إلى يوم الناس هذا لا زلت على حالة الانشغال بهذه الشخصية الموسوعية الفريدة ، ورغم ما قدمته بشأن ابن حزم من دراسات وأبحاث متعددة - منها ما ظهر للنور ، ومنها ما هو حبيس الأدراج - فلا تزال هناك العديد من الموضوعات الخاصة بابن حزم وفكره وتراثه فى حاجة إلى دراسات مفردة لعلاجها ، ومن هذه الموضوعات التدوين التاريخي عند ابن حزم .

وهذا الموضوع تحديداً كان يراودنى منذ أن أشار على به أستاذنا العلامة الكبير الدكتور محمود إسماعيل وهو يناقشنى فى أطروحة الماجستير فى العام 2004م ، حيث قال لى : لقد استطعت أن تعارك عملاقاً مثل ابن حزم بجدارة واقتدار ، واستفدت منه إفادات جمة ، ومن ثم أنتظر منك تحليلاً لمصنفات ابن حزم التاريخية ، وكنت أود أن تضمّنه أطروحتك التى بين يدي .

كنت أشعر فى الحقيقة وقتها أننى لا أستطيع أن أفى بهذا الطلب لا سيما وأن أستاذنا الراحل المفكر والمؤرخ الرصين الدكتور عبدالحليم عويس أخرج دراسة أكاديمية رائعة عن ابن حزم المؤرخ طبعت تحت عنوان : " ابن حزم الأندلسى وجهوده فى البحث التاريخي والحضارى " الأمر الذى أعاقنى تماماً عن تحقيق طلب أستاذي المفكر الكبير الدكتور محمود إسماعيل .

1) تقصينا هؤلاء بالدراسة فى كتابنا تاريخ أهل الظاهر فلترجع هناك .

مرت الشهور والسنون والموضوع معلق في ذهني ، وأستاذنا الدكتور محمود إسماعيل يفاجئني في كل مرة ألتقيه فيها باهتمام غير مسبوق بابن حزم ومصنفاته ، فتبادل أطراف الحوار تارة عن طوق الحمامة ، وما حواه من تأريخ للمجتمع الأندلسي ، وتارة عن كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل وما حواه من تدوين مبهر لتاريخ الفرق والأفكار والمعتقدات ، وتارة عن جمهرة أنساب العرب وتفنن ابن حزم وإبداعه في صياغته وطرح أفكاره ... وتارة عن نقط العروس ... وتارة عن رسالة في فضل الأندلس إلخ ... إلى أن تطرق الحديث عن تلاميذ ابن حزم لا سيما صاعد والحميدى . ثم كانت المفاجأة الكبرى عندما طرح أستاذنا الدكتور محمود إسماعيل على طلبة الدراسات العليا موضوعات تخص التدوين التاريخي في الأندلس ، وكانت إحدى الدراسات لزميلة لي تحتص بالكتابة التاريخية في عصر ملوك الطوائف الأمر الذي حرك بداخلي السواكن للعودة إلى ابن حزم ثانية ، والتدقيق في تراثه التاريخي ، وتأثيره على مؤرخي الأندلس بدءاً من عصر ملوك الطوائف حتى سقوط غرناطة . فعلق بذهني أن أعالج الموضوع المطلوب مني ضمن كتاب أتناول فيه المدرسة الحزمية التاريخية من القرن الخامس الهجري حتى القرن السابع الهجري حيث سقوط دولة الموحدين ، تلك الدولة التي تبنت فكر ابن حزم ومذهبه ، ورغم ذلك ظللت فترة بين إقبال وإدبار على الموضوع . ماذا عساني أن أفعل !! هل أتناول في الكتاب رأس المدرسة وجهوده التاريخية ؟ ثم أتناول أتباعه في مدرسته الحزمية التاريخية ؟ مع إبراز حقيقة تأثيرهم بابن حزم مؤسس المدرسة من خلال المقارنة بين منهجهم في الكتابة ومنهجه ، فضلاً عن مرجعيتهم التاريخية ، وأجناس الكتابة التاريخية التي تناولوها ، والأفكار الحضارية التي عاجلها في كتبهم ولها صلة من قريب أو بعيد بأفكار عاجلها ابن حزم ؟ وهل أقصر المدرسة الحزمية التاريخية على من تابع ابن حزم في مذهب الظاهري فقط ؟ أم أوسع المجال لتشمل المدرسة من تأثر بابن حزم في الكتابة التاريخية من غير الظاهرية ؟ أم أتوقف على مدرسة ابن حزم التاريخية في القرن الخامس الهجري ؟ إلخ.

تساؤلات عديدة ألحت على ذهني ، وظلت تطاردني فترة ليست بالقصيرة إلى أن استقر رأيي على تناول التدوين التاريخي عند ابن حزم الظاهري ، مع إبراز منهجه ومرجعياته التاريخية قدر المستطاع ، وهو ما أتاح لي فرصة المقارنة بين ما قدمه ابن حزم ، وبين ما قدمه أتباع مدرسته الحزمية التاريخية ، والتي دلفنا إليها وأفردنا لها دراسة تختص بالحديث عنها عبر عدة قرون ، أمل أن ترى النور قريباً بمشيئة الله تعالى .

وتكمن مشكلة هذه الدراسة في أن الحديث عن المدارس الفكرية بعامة والتاريخية بخاصة يحتاج إلى جهد مضمّن . إذ لا بد للباحث أن يقف على دور وجهه مؤسس المدرسة أولاً ويطبق القواعد والأصول التي وضعها على أتباع مدرسته ، وهو أمر لا يخفى على أحد صعوبته . كما أن هذه الموضوعات تحتاج إلى إلمام شبه كامل بطبيعة الشخصية الموسوعية المؤسسة للمدرسة ، والعلوم المتعددة التي عالجها ومدى إفادتها للبحث في الجانب التاريخي . لا سيما وأن استخدام العلوم المساعدة أو العلوم البينية في تدوين التاريخ أصبح من الأمور الحتمية في أيامنا هذه ، وهو أمر من أخطر المشكلات والصعاب التي تواجه من يلج هذه الموضوعات .

هذا وقد اعتمدت في هذه الدراسة على منهج استقرائي يعتمد إلى تحليل الخبر ورده إلى أصله ودوافعه ، كما استعنت بالمنهج النقدي في مناقشة الروايات التاريخية المختلفة لترجيح رواية على أخرى ، فضلاً عن المنهج الوصفي السردى ، والبنوي التفكيكي . وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة .

تناول الفصل الأول الكتابة التاريخية بالأندلس منذ نشأتها حتى عصر ابن حزم . وعالج الفصل الثاني وعنوانه : " منهج ابن حزم ومرجعياته التاريخية " أربعة مباحث هي :

شروط المؤرخ عند ابن حزم - ابن حزم وفلسفة التاريخ - منهج ابن حزم وأسلوبه في الكتابة التاريخية - المرجعية التاريخية لابن حزم الظاهري .

واختص الفصل الثالث وعنوانه : " أجناس الكتابة التاريخية عند ابن حزم " بدراسة أنماط الكتابة التاريخية التي تناولها ابن حزم وهي : السيرة النبوية - التراجم والطبقات - التاريخ المحلي (تاريخ المدن) - تاريخ الدول والحكام - تاريخ الفتوح - الأنساب ومعاجم الشيوخ -تاريخ الأديان والفرق والأفكار .

واختتمت الدراسة بخاتمة تناولت أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها.

وأخيراً آمل أن أكون قد قدمت شيئاً مفيداً بشأن ابن حزم الظاهري وفكره خاصة ، والمعرفة التاريخية عامة ، وأتمنى أن ينال هذا العمل إعجاب الباحثين والقراء والنخب المثقفة المتابعة بنهم لكل ما يصدر عن ابن حزم الظاهري من مصنفات ودراسات وأبحاث ، وأن يكون لبنة جديدة تضاف إلى المكتبة العربية والإسلامية بعامة ، وإلى المكتبة التاريخية خاصة ، والله تعالى أسأله التوفيق والسداد في سائر أعمالنا .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

دكتور

عبدالباقي السيد عبدالهادي

